أثرُ الفنون العربية قبل الاسلام
في الفن الاسلامي

د. عبد الرحمن الطيب الانصاري

لقد شرفتني المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باختياري ضمن خبرائها لأتحدث عن جانب هام من جوانب الحضارة العربية الاسلامية وموضوعه : «اثر الفنون العربية قبل الاسلام في الفن الاسلامي» وقد ترددت بادىء ذي بدء، لانه موضوع شاق ولم يتطرق اليه احد من الباحثين من جميع جوانبه، ثم وجدتها فرصة سانحة لكي احاول ان ألملم أشتات أثر هذه الفنون في الفن الاسلامي.

انني أهدف من وراء هذا البحث ان اتبين الروابط بين الفنون في العصرين. وقد جمعت ما أشعر ان له ارتباطا بالناحية الاثرية من قريب أو بعيد. وفي البحث المطول سأضيف ما اجد انه مرتبط بالجانب الاثري وقد حاولت ان اتطرق الى الموضوعات التالية :

1. العمارة وتخطيط المدن.
2. النحت والتشكيل والفنون الزخرفية.
3. الكتابة.
4. المسكوكات والمكاييل والاوزان في أسواق الجزيرة.
5. الكلمة والصوت والفلك.
6. الزراعة وطرق الري.

1) العمارة وتخطيط والمدن :

مما لا شك فيه اننا لا نستطيع ان نتصور المدينة العربية على نسق واحد في مخططاتها ولكن لا شك في انها تتحد في الاحتياجات الضرورية لحياة الناس، كما ان طبوغرافية الموقع تتحكم في

امتداد المدينة أو استدارتها أو قسمها الى جزأين أو أكثر. ويجمل بنا أن نقسم مبدئيا هذا الجانب الى قسمين :

أ ـــ **نحت في الجبال** : وهذه تتمثل بالنسبة للجزيرة العربية في الحضارة النبطية في البتراء والحجر والبدع وهذه لا تعطي صورة كاملة للتصوير العربي لتخطيط المدن اذ انها في مجملها عبارة عن مقابر أو مسارح أو معابد ولعل حفر خربية الحجر وخربية البدع سيتكشف عن المناطق السكنية والجوانب التنظيمية والاجتماعية الاخرى. ان ما نشاهده لا يمثل الا جوانب لا تكتمل فيها الصورة المطلوبة للمدينة العربية ولعل العنصر البارز الذي يمكن ان نشير اليه هو المحاريب المتحدة في مدائن صالح ولعلها كانت الخلفية الحضارية للمحراب الاسلامي الذي ظهر خلال العصر الأموي.

ب ـــ البناء بالحجارة والطوب : ويحسن بنا هنا ان نشير الى تمنع وحصن الغراب وغيرها من المناطق التي حفرت، وما تمثله من تكامل في المدينة العربية، كما ان قرية الفاو تعد عنصرا فريدا حتى الآن في محاولة التكامل، الا ان ما ينقصها هو التسوير الذي استعيض عنه ببوابات من الجهات الشمالية والغربية والجنوبية. ويبدو أن سبب ذلك كونها الى جانب أنها محطة من محطات القوافل على الطريق التجاري بين اليمن والخليج من ناحية، وبين اليمن وبلاد العراق والشام من ناحية اخرى فانها تعتبر كذلك واحة زراعية، لذا يبدو انها فضلت ان تنشيء الى جانب البوابات ابراجا ضخمة خاصة بالمراقبة على نحو ما نشاهده في قرى اليمن. كما ان افضل نماذج يمكن ان نتمثلها هي مدن الحجاز : مكة والطائف ويثرب ويمكن ان نتبع هذه المدن ببعض مدن نجد التي وصفت كتب الجغرافيين العرب وخاصة الهمذاني نماذج مدنها.

مكـــــة : كانت ركيزتها الكعبة المشرفة تحيط بها المنازل والاسواق وكانت أشكال المنازل دائرية كما يذكر الازرقي حتى لا تضاهي الكعبة في تكعيبها، وكانت دار الندوة تطل على الكعبة كما كان لقبائل قريش مرابض ينزلونها في احياء ما زالت تحمل الاسماء القديمة حتى الوقت الحاضر كأجياد والسفله والطنغباوي نسبة الى الطنغب وهو نبات يكثر في هذه المنطقة. وهكذا تحكمت الطبيعة الجبلية في توزيع احياء مكة قبل الاسلام وبعده. والانموذج الثاني هو **الطائف** : وكانت محاطة بسور ضخم كان عائقا للمسلمين في فتحها أول الامر، وان كنا لا نعرف عن تقسيماتها الداخلية الشيء الكثير الا أننا نعتقد ان طبيعتها الجبلية أثرت على تنسيقها، ومما وصل الينا عنها هو كثرة آطامها التي كانت تقوم بمهمتين : السكنى والحماية والقدرة على الدفاع عن كل اطم، اذا ما هاجمته قبيلة من القبائل. **أما يثـرب** : والتي سماها الرسول ﷺ بالمدينة وباسماء اخرى فقد كانت الصورة فيها أوضح لأن المؤرخين اهتموا بوصفها حين وصول الرسول اليها. وكان الجزء الجنوبي منها أكثر كثافة سكانية من الجزء الشمالي، ولذا فان منطقتي قباء والعالية تعتبران يثرب كما وجدها الرسول اما الجزء الشمالي فقد كانت تسكنه بعض قبائل الخزرج من بني ساعده وبني عبد الاشهل وبني حزام. وكانت يثرب مليئة بالآطام ومن أشهرها في الوقت الحاضر آطام

الضحيان في جنوب المدينة وآطام ابي دجانه الصحابي الجليل وسط المدينة وآطام بني عبد الأشهل في شماليها الشرقي. ولعل التغيير الذي حدث عند مجيء الرسول اليها هو نقل الثقل الى الوسط بين الجنوب والشمال وذلك ببناء المسجد وبناء بيوت الصحابة من قريش وغيرهم، كما نقل السوق من شرقي المسجد الى غربه، ولعل الهدف من هٰذا التغيير هو عدم مضايقة الاوس والخزرج في مرابعهم كما تركت لهم مزارعهم التي تتركز في الجزء الجنوبي وحتى القطائع النبوية للصحابة من قريش كانت في الشمال حيث تقل نسبة السكان. وكانت هناك حدود طبيعية للمدينة هي حرتا واقم ووبره من الشرق والغرب وجبلا أحد وسلع من الشمال وجبل عير من الجنوب ويقسمها وادي الوتر وبطحان من الوسط ولذا تعتبر المدينة أنموذجا ممتازا للمدينة العربية قبل الاسلام. **أما اليمامه** : وهي احدى مدن نجد فان الهمداني وصفها بكثرة بتولها واحدها بتيل، والبتيل هو الحصن السامق. ولعل كلمة بتيل مكونة من مقطعين. بيت وايل ولعله كان لهذه البتول أو لبعضها صبغة دينية. وسنحاول ان نقدم تصورا لها في البحث المطول ان شاء الله. من كل ذلك يتبين لنا ان الذين قاموا بوضع الخطط الاسلامية في الكوفة والبصرة والفسطاط وربما القيروان كانوا يمثلون النماذج العربية في جزيرة العرب. وقد قام احد طلاب الدراسات العليا في قسم التاريخ بكتابة رسالة للمجاستير تحت اشرافي بدراسة خطة المدينة المنورة في عصر الرسول وقارنها بخطة الكوفة والفسطاط وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن اثر المدينة واضح في تصميم المدن الاسلامية الجديدة.

2) النحت والتشكيل والفنون الزخرفية :

هل كان العربي متذوقا لفن النحت والتشكيل ؟ وهل كان يعبر بدقة عما يريد من خلال نحته لتمثال أو جزء من تمثال ؟ أو عندما يشكل من الطين أو المعادن صورا مختلفة لمظاهر الحياة ؟ هل كان صادقا مع نفسه في نقل الحقيقة متمثلا لدوره كفنان ؟ هذه اسئلة تحتاج للاجابة عنها الى ترو وتبصر لاننا لكي نحكم بشيء يجب ان نتبين التأثيرات الحضارية التي وصلت الى الفنان العربي أو احتك بها، وهي تأثيرات قوية احيانا وذات لمحات خفيفة في أحيان اخر. وفي دراستنا هذه سوف نتتبع هذه التأثيرات ونحاول ان نتتبع مدى هضم الفنان العربي لهذه التأثيرات وتفاعله معها وقدرته على الابداع المستقل. ويتراءى لنا سؤال ثان عن الهدف من وراء اهتمام الفنان العربي بالنحت والتشكيل ولعل الاجابة عن هذا السؤال أيسر من الاجابة عن الاسئلة السابقة اذ ان الهدف فيما اراه ديني لأننا نجد في تراث الجزيرة العربية في هذا الجانب دلائل كثيرة تشير الى الارتباط الديني الوثيق ولذلك فاننا لا نجد اصرارا قويا بعد ظهور الاسلام على فن النحت والتشكيل، وذلك لأن الارتباط الديني القديم لا يتمشى مع مبادىء الدين الجديد، فقد جاء الاسلام بالوحدانية ونبذ الاوثان والاصنام وكان اول عمل هز مشركي مكة هو تكسير النبي ﷺ للاصنام حول الكعبة وتعقبه لاصنام اخرى في اماكن ومدن مجاورة. وهذا ما يجعلني اعتقد ان العرب قبل الاسلام ارتبطوا بما نحتوه وشكلوه دينيا. وهذا قد يفسر لنا قلة اكتراثهم بنحت تماثيل

للملوك والاقيال، وحتى ما نجده في بلاد الشام من تماثيل أو بعض تماثيل لملوك أو ملكات، فاننا نجده غالبا في أماكن لها ارتباط بالعبادة كالمعابد والمقابر أما الفنون الاخرى التي ترتبط في مجملها بالعبادة فقد بقيت وخاصة المثلثات والمربعات المتراكبة والدوائر المتكسرة أو الدوائر الهلالية والنباتات والثمار وما شابهها فقد استمرت في الحضارة الاسلامية وتطورت وازدهرت.

3) الكتابـــــــة :

لماذا خاطب الله عز وجل رسوله بـ : اقرأ، وأقسم بـ : ن والقلم وما يسطرون، وبـ : والطور وكتاب مسطور في رق منشور، وكلها سور مكية، وهناك آيات أخرى تتحدث عن الكتاب كقوله تعالى : «فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه» وهي سورة مكية، وفي سورة عبس وهي مكية، يقول الله تبارك وتعالى «كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرّمة مرفوعة مطهرة»، ويقول في سورة الانفطار وهي مكية : «وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون»، وفي سورة المطففين وهي مكية ايضا يقول تعالى : «كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وما ادراك ما عِلّيون كتاب مرقوم يشهده المقربون» بعد هذا الاستعراض لبعض آيات القرآن الكريم وهو مصدر رئيسي لتصوير بعض جوانب حياة العرب نستخلص أنهم كانوا يعرفون الكتابة جملة وتفصيلا بكل دقائقها وأدواتها ولم تكن الكتابة كما يدعي البعض في اوساط خاصة دون أخرى. والدلالة التي يمكن ان نستنبطها من خلال حادثة فدية أسرى المشركين هو اهتمام الرسول ﷺ بهذا الجانب المهم لتعليم الصبية وليس الكبار، ومن طلب منهم التعليم كانوا لا يستطيعون افتداء انفسهم. ان اختياري للآيات المكية انما هو للدلالة على أن المجتمع العربي لم يكن قد أسلم بعد وانه ما زال على وثنيته والا فان هناك آيات مدنية تتحدث عن المعاملات والمكاتبات مما لا يدخل في هذا الباب بقدر ما يدخل في باب التشريع الذي ليس هنا مكان الحديث عنه.

ومن المعروف ان الكتابة الآرامية النبطية كانت أساسا للكتابة العربية وان كنا نتساءل كثيرا عن الاسباب التي حدت بالعرب ان يختاروا الكتابة بالآرامية النبطية عن الكتابة بالقلم المسند رغم اكتمال اشكال حروفه لما يطابق مخارج العربية ورغم ان القلم المسند وصل الى اطراف بلاد الشام ممثلا فيما يطلق عليه خطأ بالكتابات الصفوية والثمودية والا فانني افضل ان اسميه خط البادية لامور سوف ابسطها فيما بعد. ولا نريد ان ندخل الآن في تعليلات لاسباب اختيارهم للخط الآرامي النبطي ولكن يجمل بنا ان نذكر سببين أولهما الاثر النبطي الذي كان قويا بعد سقوط دولة الانباط اذ انتشرت القبائل النبطية ولا أشك في أنها نزحت الى مكة هروبا من وجه الرومان ولعلهم تمركزوا أيضا في الطائف وربما كانت قبيلة بني عبد ضخم وقبيلة بني سليم من بين هذه القبائل. وربما يفسر هذا بداية ظهور مكة على مسرح التسجيل التاريخي في الكتب الكلاسيكية، ثم نجد التنظيمات التي تنسب الى قصي بن كلاب وهي تنظيمات تبدو عليها التأثيرات الشمالية، ويجمل بنا ان نذكر أن أم قصي. كما تذكر الكتب العربية كانت شمالية. كما نزحت بعض القبائل النبطية واندمجت في حلف دولة المناذرة وتدمر ومن هنا انتشر الخط النبطي

في شمال الجزيرة العربية. والعامل الثاني : هو الصراع السياسي بين الروم والفرس على جنوب الجزيرة العربية والتي كانت تحمل شعلة الحضارة العربية انطلاقا من الجنوب مما جعل دولة حمير في شغل شاغل عن بقية انحاء الجزيرة الا من حملات متفرقة سجلتها النقوش ويرجع احدثها الى القرن الرابع الميلادي، ولعل هذه الحملات والاوضاع السياسية المتأرجحة كانت من العوامل التي صرفت اوجه القبائل الى مراكز الثقل في الشمال خاصة وأن الطرق التجارية التي كانت تربط مصالح هذه القبائل بدول الجنوب قد تأثرت بل وضعفت الى حد ما، بسبب تحول معظم التجارة من البر الى البحر وان كانت لم تنقطع كلية.

وهكذا حقق القلم النبطي انتشارا واسعا في رقعة واسعة من الجزيرة العربية وانحسر القلم المسند الى أماكنه السابقة وان كنا لا نستطيع ان نعرف مدى انتشار الخط النبطي بين عامة الناس كانتشار الخط المسند الذي أشرنا الى أنه استطاع ان يغزو ركبان القوافل والرعاة.

ويبدو لي ان العرب كانوا ينظرون الى الكاتب والكتابة نظرة اجلال وتقدير، من هنا جاءت ندرة الكتابة على الاواني الفخارية البسيطة وكان استعمالها مقتصرا الى حد كبير على الاواني الحجرية والنحاسية وعلى التماثيل والمباخر وادوات القرابين مما يجعل الكتابة عملية مرتبطة بمجالات لها اتصال بمقتضيات الاحوال.

وقد انتشرت الكتابة بشكل لم يتيسر لاي فن آخر في انحاء متفرقة من الجزيرة العربية وقل ان نجد مستوطنة أو طريقا أو واديا لا نجد فيه الكتابة متفوقة على المعالم الاثرية الاخرى. واوضح دليل على ذلك قرية الفاو التي جمع منها عدد وافر من الكتابات. ولعل العناية بالكتابة تعد من أهم مظاهر جنوب وسط الجزيرة العربية بل وصل الامر بسكان الفاو الى ايجاد مكان لما أسميناه بفنان القرية، مما يوحي بان مدرسة خطية نشأت في قرية الفاو كان من أهدافها نشر الكتابة بل توصلت هذه المدرسة الى ربط حروف المسند كما حقق ذلك الانباط بالنسبة للآرامية مما يجعلنا نعتقد في الوقت الحاضر بان المستوى الفكري في هذه القرية قد بلغ مرحلة متقدمة مقارنة بالمناطق الاخرى التي تستعمل الخط المسند. ولعلنا لم نتحصل على اسماء اصحاب الحوانيت في مناطق اخرى كما تحصلنا عليها في قرية الفاو. اما الكتابة والزخرفة والرسم بالالوان على العظام والجص فهي ميزة ظهرت في الفاو مما كشف لنا عن بعد جديد من ابعاد تطور الكتابة بالقلم المسند فنحن نعرف ان الخط النبطي قد كتب على الرق ودليلنا على ذلك ما وجد في فلسطين وقد يوجد يوما ما في الحجر (مدائن صالح) أو البدع (مقابر شعيب) اذا ما اجريت تنقيبات في المقابر وفي المنطقة السكنية. اما الخط المسند فلم نعرف فيما وصل الى علمنا انه كتب على غير الصخر. وهكذا نجد ان الجزيرة لم تكن لتجهل الكتابة قبيل الاسلام وما هذا العدد الكبير من كتاب الوحي الذي أوصله بعض العلماء الى ستين كاتبا الا دلالة على انتشار الكتابة، كما ان عناية المسلمين بتنسيق خط المسند بشكل هندسي بديع وكذلك وضعهم اسم الملك أو الشخصية الهامة في بداية النص وذلك بتجميع حروف اسمه وتشكيلها في نمط زخرفي يشبه الطغراء. كل ذلك تقديرا للكتابة واجلالا لها، كما اننا نجد في الحجر عناية الانباط بوضع النص

في اطار جميل يشتمل على اسطر متوازية منمقة كما هي عليه شواهد القبور الاسلامية. ويجمل بنا ان نشير الى ان الختام في الرسائل والذي عرف في صدر الاسلام بقوله : «وكتب فلان» اجد له صدى لما كان يكتب في ختام معظم النصوص النبطية في الحجر. وفي الفاو اعتنى الكاتب الفاوي بالكتابة وجعلها في اطار منمق جميل يحمل معلومات عن الفرد وقبيلته ويجمله احيانا باسم كهل (معبود قرية الفاو) كما ينمق المسلمون شواهد قبورهم أو النصوص التذكارية الهامة بوضع كلمة الله ومحمد.

وقد استعمل العرب الكتابة في أغراض شتى سنبسطها في بحثنا الا اننا يمكن ان نشير الى غرضين لهما أهميتهما وهما :

1. كتابة الشعر وتعليقه على الكعبة وربما داخل المعابد وهذا ما أشارت اليه اخبار المعلقات.

2. وثيقة مقاطعة قريش لبني هاشم والتي علقت على باب الكعبة.

وكلا الغرضين يدل على انتشار الكتابة والقراءة بين الناس والا فما جدوى تعليق وثيقة المقاطعة.

4) المسكوكات والمكاييل والاوزان في اسواق العرب :

هذه الاصناف من وسائل التبادل التجاري بين الافراد والجماعات كانت ولا تزال وستظل مثار اهتمام الباحثين في كل مجتمع وفي كل عصر، وعليه فان الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي بين قارات حضارية وباعتبارها معبرا متوسطا بين الشرق والغرب تأثرت وتتأثر دائما بماجريات الاحداث والتقلبات الاقتصادية التي تصيب المنطقة المحيطة. والتأثر والتأثير يبدو واضحا في النقود، وليست لدينا صورة واضحة عن اول نقد ضرب في الجزيرة العربية قبل الاسلام ولكن الواضح لدينا ان سكانها تعاملوا بعملات الدول المجاورة خاصة الفرس واليونان والرومان وقد تطغى عملة دولة على أخرى نظرا لنفوذها وسيطرتها. ويبدو أن أغنى منطقة بالعملات هي جنوب الجزيرة العربية وكان طبيعيا ان نجد عملات محلية قد سكت فيها وحملت النقش العربي الجنوبي بجوار الرموز الاجنبية رغبة على ما يبدو في رواجها وضمان تداولها بين الناس، ولا ندري ان كانت هذه العملات الجنوبية قد وجدت طريقها الى بلاد الشام وما حولها أم أنها كانت محلية ؟ اذ أنني لا أعلم وجود عملات جنوبية في شمال الجزيرة العربية. ولا أشك في ان تنقيبات أثرية في المناطق الشمالية ستكشف عن مدى اتساع رقعة التداول. كما اننا نفاجأ بوجود كميات طيبة من العملات الفاوية التي سكت في قرية الفاو والتي تحمل احرف مسندية كما تحمل رمز «كهل» ومعظمها من الفضة ولعل هذه العملات ايضا كانت للتداول بين سكان المنطقة، وقد تكشف الايام عن عملات فاوية في جنوب الجزيرة مقابل حصولنا على عملات جنوبية في الفاو.

ولعبت الاسواق العربية دورا هاما في تسويق العملات العربية في نطاق الجزيرة العربية ويربو عدد الاسواق على عشرين سوقا ومما تجدر الاشارة اليه ان العرب قد نظموا هذه الاسواق لتكون

على مدار السنة فيبدأون بذي المجاز ومجنه وينتهون بعكاظ وخلال هذا العام يمرون باليمن وحضرموت وعمان والبحرين بمفهومها الجغرافي القديم وشمال الجزيرة حتى بصرى الشام ثم ينكسون الى شمال الحجاز حيث خيبر ويثرب حتى يعودوا الى عكاظ. تلك رحلة اقتصادية تستحق الوقفة والتأمل والدراسة. ويمكن ان نستخلص منها اشياء كثيرة وفي مقدمتها النقد المتبادل الى جانب اهميتها في المزج الحضاري وتأصيل الوحدة القبلية. وكانت القوى الخارجية المتمثلة في المناذرة والغساسنة تلعب دورا في تهدئة القبائل أو تأليبها على بعضها البعض. كما خلقت هذه الاسواق ضربا من التقارب اللغوي هيأ لظهور لهجة موحدة ينشد بها شاعر الشمال فنجد صداها في الجنوب ويرسل امرؤ القيس شعره واصفا صولاته وجولاته وعبثه في دارات جزيرة العرب فتهتز له اعطاف غادات نجد والحجاز والبحرين وهو الكندي الجنوبي.

تلك هي قضية النقد والاسواق ولعل من اهم الأسواق العربية سوق قرية الفاو الذي اعتبره ذا تأثير قوي في حركة النقد والتجارة ولكن الذي يحيرنا هو عدم ذكره بين الاسواق التي ذكرها المؤرخون ولعل عدم الاشارة اليه يرجع الى انه لم يدم حتى عصر تسجيل الذاكرة العربية للاسواق التي لعبت الدور الاقتصادي في الجزيرة العربية قبيل الاسلام.

والاسواق هي اوضح مثال للاحتفاظ بالمكاييل والاوزان وقد وجدنا في قرية الفاو كمية كبيرة من الاوزان ومكيالا خشبيا واحدا مازالت جميعها تحت الدرس لمعرفة ما يوازيها من الاوزان والمكاييل المعروفة قبل الاسلام وبعده. وفي الاسواق والمدن كانت الدول المسيطرة والقبائل تنظم عملية البيع والشراء وتخزين البضائع كما تشرع ما للتاجر وما عليه مما نجد له نماذج في الكتابات الجنوبية وما حفظته لنا الحياة الاقتصادية عند العرب في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام اذ كانت مظاهرها واضحة عند بداية التشريع الاسلامي حيث اقر الاسلام بعضها وحرم البعض الآخر ضمانا للعدالة بين المسلمين وقد تناول القرآن الكريم بعض هذه المظاهر وخاصة فيما يتصل بالوفاء بالكيل والميزان وعن الذهب والفضة والدينار والدرهم مما عرفه العرب ومارسوه وخاصة رحلة الشتاء والصيف والتي كانت حركة تجارية قوية لعبت فيها مكة دورا بارزا قبيل ظهور الاسلام وأدت هذه الاسواق الى ضرورة اقامة احلاف بين القبائل لتأمين القوافل والى ابرام اتفاقيات بين قريش والممالك المحيطة لتسمح للتجار العرب بان يتسوقوا في أسواق الشام وفارس والحبشة ومصر. وقد كسب العرب بهذه الحركة خبرة واسعة في التجارة كان لها اثرها على الحركة الاقتصادية الاسلامية بعد الفتوحات وجعلتهم يتمكنون من فهم حركة التوازن الاقتصادي عندما احتكوا بالبيزنطيين واصبحوا قادرين على فهم اوزان العملات واهمية انقاص وزنها أو زيادته.

ولعلنا نلاحظ ان الرسول ﷺ لم يعرف عنه كراهيته لما رسم على النقود من صور وصلبان كما لم تعرف كراهية احد من الصحابة لذلك. من هنا نرى ان في هذا ما قد يؤيد ما ذهبنا اليه من ان النحت والتشكيل كان الهدف منهما دينيا، ولما كان هدف الاشكال المرسومة على العملات غير ديني انتفت ضرورة التغيير كما ان التغيير قد يتسبب في زعزعة النظام المالي والاقتصادي ولذا لم يجد خلفاء بني أمية غضاضة في ان يضعوا صورهم على المسكوكات التي

ضربوها ولعل مدلول الحديث الذي يروى عن الرسول ﷺ وهو قوله ما معناه «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها ترقق القلب أو فانها تذكر بالآخرة» كان هو خشية العودة الى الوثنية فلما انتهى السبب ارتفع المحظور بعد ان انتشر الدين الاسلامي وتوطدت اركانه وسنعالج المسببات بالتفصيل في المستقبل ان شاء الله.

5) الكلمة والصوت والفلك :

الكلمة والصوت من أكثر الاشياء التصاقا بالعربي فهذه الصحراء الواسعة الشاسعة يقطعها غدوا ورواحا في رمضاء النهار وفي ظلماء الليل تحت أشعة الشمس اللاهبة أو تحت القبة الزرقاء الصافية تتلألأ بنجومها زاهية، وبين القمم والسفوح وفي الوهاد يحتاج العربي الى التعبير عن خلجات قلبه والتنفيس عن عواطفه فلا يجد سوى الكلمة والصوت يهدهد بهما مشاعره فتهدأ نفسه وتستكين دابته ذلك هو الحداء الذي عرفه العربي فعرف به، ومن هنا ينطلق للتحليق في فضاء الكون ومعرفة ابراجه وكواكبه ومجراته ليهتدي بها في ظلمات الليل، فجمع بذلك بين العاطفة والمعرفة. فالشعر في العصر الجاهلي يعد من ابرز مصادر معرفتنا بالجزيرة العربية قبل الاسلام ولكن ظهوره ناضجا كان من العوامل التي ساعدت على التشكيك فيه وفي مدى اصالته وخاصة ان الصراع القلبي قد اوحى للنقاد بفكرة الانتحال وبرغم كل ما دافع به الطرف الآخر من النقاد المؤيدين لاصالة الشعر العربي الجاهلي الا انه ما زال في النفس منه شيء وخاصة ان شاعرا من المخضرمين من أمثال حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ قد اضيف الى شعره ما يغذي العصبية بين قحطان وعدنان، وقد نرى ان بعضا من هذا الشعر منحول الا ان كثيرا منه اصيل.

وقد بدت بارقة أمل في ان تتلمس الجملة الفنية البليغة طريقها الى النور، وكان أول شاهد على ذلك ماجاء في نقش النمارة من تعبيرات تقربنا من صورة الجملة الفصيحة والاسلوب العربي ثم حدث ان تناقشت مع زميلي الدكتور يوسف عبد الله بشأن النقش الذي سبق ان نشرته من نصوص قرية الفاو فنبهني الى ورود الجملة العربية الفنية في نقش عجل بن هفعم وهو احد وجهاء قرية الفاو كما تدل على ذلك مقبرته التي اكتشفناها وقد اضاف الدكتور يوسف عبد الله انه اكتشف نصا جنوبيا تبدو فيه القافية مما يمكن ان يعتبر ارهاصا جديدا لمغاليق ستفتح ان شاء الله أمام مشكلة الجملة الفنية الفصيحة والوزن والقافية في شعر العرب ولا أظنني في حاجة الى التدليل على تأثير الشعر والنثر في فن الادب في العصر الاسلامي اذ استمرت مطالع القصائد هي حتى العصر العباسي وما زال صدى القصيدة الطلليه يتردد في اشعار كثير من شعرائنا التقليديين حتى العصر الحاضر.

اما الموسيقى وهي صنو الشعر وجرسه ونغمه فقد سجل الفنان العربي احد آلاتها وهي السمسمية على سفوح جبل من جبال العلا في شمال الحجاز كما سجلت الرسوم المنقوشة على الجبال في انحاء متفرقة من الجزيرة العربية رقصات لابد انها كانت تؤدى على نقرات منتظمة تضبط الايقاع والخطوات المطلوبة. وقد اشتهر جنوب الجزيرة بالطرب في العصر الجاهلي قبيل

الاسلام وقد امتلأت بيوتات مكة بالمغنيات والعازفين كما عرف الانصار في المدينة بميلهم الى الغناء وخاصة في المناسبات الخاصة كالزواج. وما بكاء حسان عندما غنت احدى الجواري في المدينة بابيات له كانت في مدح الغساسنة الا دليل على المستوى الرفيع الباذخ الذي عاشه حسان في بلاط الغساسنة. وما الخورنق والسدير لدى المناذرة الا مظهر من مظاهر الاهتمام بالغناء ومباهج الحياة وما اعتذاريات النابغة الا تألما لما فقده فترة انقطاعه عن بلاد المناذرة.

وقد استطاع هذا الجانب من مظاهر الفنون في الجزيرة العربية قبل الاسلام ان ينفذ بقوة الى العصر الاسلامي فكانت ارهاصات الغناء واضحة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين وما ان استلم الامويون الحكم الا وبرزت في الحجاز مدارس غنائية تعنى بالكلمة والصوت. ورغم ما يفسر به المؤرخون هذه الظاهرة بأنها سياسة أموية تهدف الى اغراق مكامن الخطر في الحجاز في الترف والثروة الا أن الدلالة قائمة على ان البيئة تضم بين جناحيها نخبة جيدة من ذوي المواهب الفنية الغنائية والشعر الغنائي الذي اصبح معلما فنيا بارزا في الشعر العربي وخاصة في العصر الاموي، اما الفلك فقد بر ع فيه العرب في جاهليتهم فعرفوا الكواكب السيارة والثابتة والمجرات وغلفوها بأساطير جميلة محببة كيف لا وهم قد عبدوا الشمس والقمر والزهرة وهو الثلاثي الذي يجعمهم ببقية شعوب المنطقة مما يدل على وحدة الوثنية بين سكان الجزيرة العربية. فالمعبود وان اختلف اسمه من مكان لآخر الا ان المفهوم العام لعبادته يربط بين مدلولاتها في الشمال والجنوب وهكذا كانت معبودات العربي وسيلة قوية لربطه بمظاهر السماء ومباهجها وانتقلت هذه المعرفة نقية صافية الى العصر الاسلامي بعد ان تخلص العرب من الشرك بالله.

6) الزراعة وطرق الري :

لقد تحدث القرآن الكريم عن سبإ وعما كانت عليه من وضع زراعي راق، ورغم أن ماجاء في القرآن يهدف في المقام الاول الى العظة والعبرة الا أنه يعد لوحة معبرة عن الرخاء الذي كان يسود منطقة جنوب الجزيرة العربية وهي منطقة تخفف عن كاهل العربي تهمة التصحر وأنه لا يعرف سوى الرمال والشمس الحارقة وقسوة قلبه كأكباد الابل اذ يكفي أن نعرف أن السدود في اليمن تزيد على المائة سد كما يذكر الهمداني، ويعتبر سد مأرب آية من آيات الهندسة والعمارة اذا ما قيس بمقاييس ذلك العصر واذا كانت اهرامات الجيزة قد بنيت لتكون مدفنا لفرد فأن سد مأرب قد بني ليعيش على ثروته الملايين من البشر فهو عمل انساني خالد. ولا بد ان سدا بهذا الحجم الكبير حاجزا خلفه كمية ضخمة من المياه لا بد ان يكون قد صحبت بناءه خطة هندسية فائقة لنظام الري وتصريف المياه، وما لنا نذهب بعيدا والاعشى يقول :

كفـــــى ذاك للمـــــؤتسي اسوة ومـــأرب قفّـــى عليها العـــــرم
رخـــــام بنــــــاه لهم حمير اذا جاءه ماؤهـــــــــم لم يرم
فأروى الحروث واعنــــــــابهم على ساعـــة ماؤهـــم ينــــقسم

فهو يتحدث في البيت الثالث عن تقسيم الماء بين البساتين حسب حاجتها في ساعات محددة اتفقوا على مدتها وهذا ما نعرفه عن الاعراف المنتشرة في الجزيرة العربية قبل الاسلام واستمر حتى وقتنا الحاضر في العلا والأفلاج وعمان وغيرها من المناطق وقد عرفت الجزيرة العربية القنوات الجوفية واكبر شاهد على ذلك ما نراه في مدينة العلا شمال المدينة المنورة التي يرجع تاريخها المعروف الى القرن السادس قبل الميلاد، وقد استطاع سكان هذه المنطقة ان ينظموا عملية الري في قنوات تكتنف المدينة من الشمال الى الجنوب وخاصة انها تقع على واد من أشهر أودية الجزيرة العربية وهو «وادي القرى» وقد كان في العلا حوالي اربعين عينا بقي بعض منها حتى العصر الحاضر ومن هذه العيون عين تدعل والتي أعتقد أن اسمها معيني من الاسماء الدينية المركبة والذي ظل ذكره حتى العصر الحاضر.

وقد عرفت الجزيرة العربية الزراعة وانواع الثمار والفواكه ودليلنا على ذلك ما جاء عنها في القرآن الكريم. وتأتي النخلة في مقدمة هذه المزروعات بل وحازت شرف رسمها على لوحات حجرية وطينية في الجزيرة العربية ووادي الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل كما عرف العرب زراعة الحبوب بانواعها وخاصة القمح. وقد كانت نجداهم مصدر من مصادره في الجزيرة العربية اذ كانت قبائلها تهدد بالمقاطعة الاقتصادية اذا ما حصل خلاف بينهم وبين القبائل الاخرى، وهذا ما نستشفه من موقف «هوذة بن علي» سيد اليمامة من أهل مكة نصرة للاسلام والمسلمين حين هدد بوقف الميرة عن مكة فاحست قريش بالمجاعة.

اعتنى العربي بالشجرة وخاصة شجرة المر واللبان وهذا ما نشاهده في قرية الفاو اذ وجدنا مئات من الدوائر الجصية كأحواض للشجر تتخللها حوالي سبع عشرة بئرا يبلغ متوسط قطر فوهتها حوالي ثلاثة امتار وقد اطلعت على ما جاء في حفرية حجر بن حميد باليمن فوجدت فيه نفس النمط الموجود في الفاو وأشار كاتب البحث الى ان هذه الدوائر لمثل هذا النوع من الاشجار مما يدل على اهتمامهم بهذا المصدر الهام من مصادر الثروة. وجاء الاسلام فكان ان ترعرع في واحة زراعية هي المدينة المنورة وفي شمالها تقع خيبر ذات الخصب المعروف وهكذا تتقاطر الواحات شمالا حتى نصل الى العلا. ولعل المثل الذي يقول «كحامل تمر الى هجر» يعبر لنا عن الكثافة الزراعية التي كانت تعرف بها منطقة هجر والبحرين، فالجزيرة العربية اعطت عطاء سخيا في مجال الزراعة وطرق الري مما جعل العرب بعد الاسلام قادرين على استصلاح الاراضي التي نزلوا فيها واستقروا بها ونقلوا تجربتهم بعدئذ الى شمال افريقيا والاندلس.

لهذا نجد ان الجسور متصلة بين الحضارة العربية والحضارة الاسلامية ذلك لان العرب هم مادة الاسلام فكان طبيعيا ان ينقلوا تجربتهم الانسانية الى الشعوب التي فتحوها ويبلوروا تجربتهم هذه بما يتناسب مع تعاليم الدين الحنيف.